الأمانة العامة لدور وهيئات الإفتاء في العالم

GENERAL SECRETARIAT FOR FATWA AUTHORITIES WORLDWIDE

بحوث مؤتمر الأمانة العامة

لدور وهيئات الإفتاء في العالم

تحت عنوان

دور الفتوى في استقرار المجتمعات

٢٦-٢٨ محرم ١٤٣٩ هـ ١٧-١٩ أكتوبر ٢٠١٧ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفتوى ودعم القضايا الإنسانية المشتركة

أ.د جعفر عبد السلام
الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

الحمد لله الذي جعل العلماء مصابيح كالنجوم في السماء، يهتدى بهم في ظلمات الجهل، ويدلون العباد على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد الفصيحة، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد،

فإن من الموضوعات التي لها أهمية كبرى لدى جميع الثقافات، في الوقت الراهن ومستقبلًا، هو موضوع: (المشترك الإنساني)، نظرًا لتزايد الفلسفات المحرضة على الكراهية والصراع وتذويب الثقافات، في مقابل تكاثر النداءات العالمية التي تستحسن القيم العالمية المشتركة من قبيل الحديث عن "الأخلاق العالمية" و"الأخلاق الكونية"، فضلًا عن تسارع تداخل المصالح وتشابك العلاقات وتبادل الخدمات في جميع المجالات وعلى كل المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبيئية والتكنولوجية والفكرية والثقافية.

إن رسالة القرآن تحمل بُعدًا عالميًّا كونيًّا يهدف إلى إسعاد الإنسانية إسعادًا متوازنًا وممتدًّا من العاجل إلى الآجل؛ لذلك وجب تنبيه الخطاب الإسلامي المعاصر إلى ضرورة معالجة هذا الموضوع معالجة منهجية تستحضر الأصول والمصالح التي تتقاسمها البشرية على الأرض كما لا تُغَيَّب الأسس التي تلتقي عليها وتتعاون والغايات التي وجد من أجلها الإنسان والكون والحياة فهمًا وعملًا بقول الله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ} [الحجرات: ١٣].

يمكن عرض معالم المشترك الإنساني من خلال المحاور التالية:

- ١- وحدة الإنسانية أو الأخوة الآدمية.
- ٢- وحدة الرسالة الإلهية (النبوة).
- ٣- وحدة المصير.
- ٤- وحدة المصلحة.

1- وحدة الإنسانية أو الأخوة الآدمية:

من حيث كون الإنسانية لها أصل واحد، وتعيش مستخلفة في أرض واحدة وتستنشق نفس الهواء وتعيش على نفس الخيرات وتتقاسم ذات المصالح والحاجيات، ولما كانت تستشرف مستقبلًا متآخيًا ينقلها إلى وضعٍ أحسن مما هي عليه، يخلصها من المظالم التي تَطَالُهَا، ويؤسس لعالم التواصل والتعاطف والتآخي، فإن المطلوب من جميع الأطراف هو استيعاب القواسم المشتركة بين الأمم والشعوب والعمل على تنميتها والحفاظ عليها، وتنظيم الاختلاف المحيط بها. ومن أجل هذا المطلب كان الإسلام دعوة عالمية وجاء الخطاب القرآني موجهًا للإنسان كيفما كان جنسه وزمانه ومكانه.

إن أول عنصر مشترك بين الحضارات والثقافات هو الإنسان ذاته، تلك الثروة الهائلة التي يصلح الكون بصلاحها ويفسد بفسادها، وهو العنصر الذي يحدد الانتماء إلى الأسرة الآدمية الممتدة عبر الزمان والمكان والمُثقلة بالكَبَد والمعاناة، الأمر الذي يستدعي الوعي الجماعي بهذا المُعْطَى العظيم حتى يتحقق النهوض التعاوني لإنجاز حضارة أخوية كبرى جوهرها ما يسميه الأستاذ ياسين بـ "العمران الأخوي".

فالناس كلهم من خلق الله، إخوة في الخليقة، والناس كلهم من طينة الأرض، إخوة في المنشأ، والناس كلهم صائرون إلى الله، إخوة في المصير، والناس كلهم في نفس واحدة إخوة في الإنسانية، والناس كلهم، أو ينبغي لهم، أن يعبدوا الله ويلتقوا في حماه، إخوة في الاتجاه، ومن هنا ينشأ الحب للإنسانية، والصلة بين بني الإنسان. والإسلام يغذيه بكل توجيهاته وكل تطبيقاته حتى يصبح جزءًا من العقيدة حيًّا ممتزجًا بالكيان، وحين يكون هذا هو المبدأ، حين تكون هذه هي الركيزة الموجودة في باطن النفس فإن صراع الشر في الناس يكون هو الحالة الطارئة التي لا تلبث أن تزول ويصير السلام هو الأصل في الحياة، والحرب هي الشذوذ ... إن قول الله تعالى: {وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ} [الإسراء: ٧٠] على عمومهم وشمولهم يؤكد الأخوة والآدمية المشتركة بين العالمين تؤهل الناس لبناء علاقة راشدة تقوم على حفظ كرامة الإنسان وصون حقوقه وضمان أمنه وتنظيم حريته وحفظ جميع ضروراته ... وبالمناسبة "نُحَيِّي الجمعيات الحرة المدافعة عن حقوق الإنسان حقًّا وصدقًا".

٢- وحدة الرسالة الإلهية (النبوة)

انطلاقًا من وحدة النبوة في الدعوة إلى معرفة الله تعالى والإحسان إلى الخلق والسعي بالخير أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، مع العلم أن "الإسلام" هو الدين الجامع، وهو ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، وملة جميع المرسلين، فإنه ما من نبي ولا رسول إلا ودعا قومه إلى الإسلام، قال الله تعالى: {وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ} [الحج: ٧٨].

إن الدين في الجملة هو: كل ما جاء به الأنبياء من عقائد وشرائع وأخلاق موجهة للإنسان ليصلح حاله في الحال والمآل، حيث الدين هو التوحيد، أو الإقرار

بوحدانية الله تعالى والتصديق بها. والرسالات السماوية كلها تدعو إلى الاعتصام بالله وإقامة الدين توحيدًا لله وعدلًا بين عباده، وتنبذ الطغيان والكفر والشرك والغفلة والظلم. والاعتصام بالله يؤهل الفرد والجماعة للحياة الطيبة في الدنيا والآخرة {وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ} [آل عمران: ١٠١]، يقول الأستاذ ياسين: إن عطاء الإسلام بعد نهوضنا من كبوتنا –إن شاء مولانا القوي العزيز– سيكون بحول الله وقوته الخير العميم الذي تحنُّ إليه نفوس البشر، سيكون هدفنا الدَّعَوِي إبلاغ الإنسان أينما كان بلاغ التوحيد، وبلاغ الأخوة بين البشر، وبلاغ السلام في العالم، وبلاغ العدل والإحسان.

بهذه الرؤية المنهجية المستقبلية يستشرف الفكر الإسلامي أفق السلام العالمي الذي يؤاخي بين الإنسانية وينهضها للقيام بواجبها الوجودي والمعرفي والسياسي والأخلاقي.

٣– وحدة المصير:

إن مصير الإنسان المكرَّم يكون بين يدي ربه في الآخرة ... ولكن كيف نتعارف ونتكامل ونتعاهد على ألا نلحق الضرر ببعضنا البعض ولا بأرضنا وثرواتنا وبيئتنا؟ وكيف نحفظ حياتنا المشتركة تكاملًا وتعارفًا وتنافسًا؟ وما هي السبل التي نعمر بها الأرض وقد ذُكرت "الأرض" في القرآن المجيد حوالي ٢٤٥ مرة نظرًا لمحورية قيمتها؟ هي أُمُّنَا ومنها خُلِقْنَا وعلى ظهرها نَدُبُّ وإليها نعود تارة أخرى، فهل يُتَصَوَّرُ صلاح الإنسان بإفسادها والفساد فيها؟ وبالمقابل أي ضرر يُخْشَى بالحفاظ على صلاح الأرض والتعاون على الإصلاح فيها بين بني البشر ثقافات وحضارات وخيارات متكاملة متعاونة؟ وليكون الإنسان إنسانًا واحدًا، لا يَسْتَعْبِدُ إنسانٌ إنسانًا، ولا يضعه تحت الوصاية، ولا يحد من سيادته، ولا يستغل القانون الدولي، والتأليب

الدولي، وإجماع الخمسة ليدمره ويخذله، ويوزع أرضَهُ على القبائل الشرسة، والأقوام الشريدة.

٤- وحدة المصلحة:

الحياة المشتركة تقتضي مما تقتضيه نبذ أخلاق الأنانية والاستعلاء والتمركز حول الذات والتحيز المَرَضِي من أجل التعايش وفق مقتضى الجماعة الإنسانية المتداخلة مصالحها المتكاملة أدوار أعضائها المندغمة حاجياتها، نتعايش ونتعارف ليس فقط للشبع من جوع والغنى من حرمان، بل للتحرر من عبودية البشر لبعضه البعض وحق الإنسان في معرفة ربه واختيار طريق السلوك إليه. المسلمون أصحاب رسالة رحيمة رفيقة تنسجم انسجامًا كليًّا مع فطرة الكائن البشري وتوافق مطالبه وطموحاته وتربط مبتدأه بمبتغاه.

ومن الأهمية بمكان بعد أن تناولنا المشترك الإنساني بشكلٍ يكاد يكون مختصرًا، أجد لزامًا علينا أن نتناول الفتوى وآدابها والتجرؤ عليها من منطلق أنها مسؤولية ينعكس صداها على الفرد والمجتمع على حد سواء.

الفتوى: آدابها، خطورة التجرؤ عليها

الفتوى هي الإبانة والتوضيح لِما هو مُبْهَم وغير واضح، وهي الإجابة عن التساؤل، وهي تُبَيِّن المشكل من الأحكام، والمفتي هو الذي يجيب الناس على أسئلتهم، ويبين لهم أحكام الله تعالى فيما يسألونه، والمستفتي هو طالبُ الفتوى مِن أهلها.

ولقد وردت كلمة الفتوى في كتاب الله تعالى في آيات، منها: قوله سبحانه وتعالى: {فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ} [الصافات:

١١]، يعني: فاسأَلْهم سؤال تقرير، وقال جل جلاله: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ} [النساء: ١٧٦]، وقال سبحانه وتعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ} [النساء: ١٢٧]؛ أي: يسألونك سؤال تعلُّم.

والمستفتي يسأل عن المسألة ليبرئ ساحةَ ذمته من المساءلة أمام الله تعالى فيما يريد الإقدامَ على فعله، حتى تطمئنَّ إليه نفسه، وما لم تطمئن إليه النفس من فتوى فلا ينبغي للمسلم أن يأخُذَ به، حتى يستشير ويستفتي ثانية، وقد يتهاون البعضُ في أمر الفتوى، فيتصدى لها مِن غير أن يكون على درايةٍ وعلم بما يفتي فيه، فيكون بذلك قد ضلَّ وأضلَّ؛ فالفتوى في الدين لا بد أن تكونَ صادرة من أهل العلم والاختصاص، الذين أمَرنا الله تعالى أن نرجع إليهم عند تعسُّر الوصول إلى المعرفة؛ قال الله تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣]، والمفتي موقِّع عن الله رب العالمين؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "... فطاعةُ اللهِ ورسوله، وتحليل ما أحله الله ورسوله، وتحريم ما حرمه الله ورسوله، وإيجاب ما أوجبه الله ورسوله – واجبٌ على الثَّقَلين الإنسِ والجن"، واجب على كل حال؛ سرًّا وعلانية، لكن لمَّا كان مِن الأحكام ما لا يعرفه كثيرٌ من الناس، رجع الناس في ذلك إلى من يعلِّمهم؛ لأنه أعلم بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، وأعلم بمراده، فأئمة المسلمين الذين اتبعوهم وسائلُ وطرق وأدلة بين الناس وبين الرسول، يبلِّغونهم ما قاله، ويفهِّمونهم مرادَه بحسَب اجتهادهم واستطاعتِهم.

خطر الفتوى:

علَّم الله تعالى نبيه أن يقول: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦]، وورَد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: ((إن العلماءَ ورثةُ الأنبياء))، هذا الفضل وتلك المنزلة لم تأتِ مِن فراغ، ولكن لِما يتحمله العلماء

من أمانة التبليغ عن الله ورسوله، والفتوى ركنٌ ركين من هذا البلاغ؛ ورَد في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "أيها الناس، مَن سُئِلَ عن علم يعلَمه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل: الله أعلم؛ فإن مِن العلم أن يقول لِما لا يعلم: الله أعلم"، وقال الإمام محمد بن المنكدر رحمه الله: "إن العالم بين الله تعالى وبين خَلْقه؛ فلينظُرْ كيف يدخل بينهم"، روى الدراميُّ في سننه عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال في خطبته: "مَن علِم علمًا فليعلِّمْه الناس، وإياه أن يقول ما لا علم له به، فيمرُقَ مِن الدِّين، ويكون من المتكلفين"، من هنا تكمن خطورة الفتوى؛ لذلك هاب الفتوى أكابرُ العلماء، على الرغم من علمهم الوفير، وعملهم بهذا العلم، ولم تدفعهم شهرتهم الواسعة إلى التجرؤ على الفتوى، فلا يتحرج أحدهم من قول: لا أدري إن كانت المسألة معضِلة، أو يؤخر الجواب إلى حين البحث عنها، روى الإمام ابن المبارك في الزهد بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبي ليلي قال: "أدركتُ عشرين ومائة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم –أراه قال: في هذا المسجد– فما كان منهم محدِّث إلا ودَّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا مُفْتٍ إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا"، ورَوى بسند صحيح أن ابن عمرَ رضي الله عنهما سُئل عن شيء، فقال: "لا أدري"، ثم أتبعها، فقال: "أتريدون أن تجعَلوا ظهورنا لكم جسورًا في جهنَّم، أن تقولوا: أفتانا ابنُ عمرَ بهذا"، وهذا شأنُ أهل العلم والفضل المشهودِ لهم بالإمامة في العلم والدين، قال الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رضي الله عنه: "ما أفتيتُ حتى شهِد لي سبعون أنِّي أهل لذلك".

فالذي يعرِّض نفسه للفتوى لا بد أن يعلم يقينًا أنه سيحاسب عن كلِّ ما يتكلم به، فإذا أفتى بغير علم، أو أفتى بخلاف ما هو صواب، لهوًى، أو لغرَضٍ، أو لتحقيق دنيا عاجلة – إنما يُقحِم نفسه في الويل والهلاك.

فالإفتاء بغير علمٍ حرامٌ ومن الكبائر؛ لأنه يتضمنُّ الكذبَ على الله تعالى ورسوله، ويتضمن إضلال الناسِ؛ قال تعالى: {قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]، فقرَن سبحانه وتعالى القولَ على الله بغير علم بالفواحش والبغيِ والشِّرك.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله لا يقبِضُ العلم انتزاعًا ينتزعه مِن العباد، ولكن يقبض العلمَ بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتخذ الناسُ رؤوسًا جهَّالًا، فسُئلوا، فأفتَوا بغير علم؛ فضلُّوا وأضلُّوا))، وروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ((مَن أُفتِيَ بغير علم، كان إثمُه على مَن أفتاه))، وقال ابن القيم رحمه الله: "مَن أفتى الناسَ وليس بأهلٍ للفتوى فهو آثِمٌ عاصٍ، ومَن أقرَّه مِن ولاة الأمور على ذلك فهو آثِمٌ أيضًا".

قال ابن قيِّم الجوزية رحمه الله: "... ويلزمُ وليَّ الأمر منعُهم كما فعل بنو أمية، وهؤلاء بمنزلة مَن يدل الرَّكْب وليس له علم بالطريق، وبمنزلة الأعمى الذي يرشد الناس إلى القِبلة، وبمنزلة مَن لا معرفة له بالطب وهو يطُبُّ الناس، بل هو أسوأ حالًا مِن هؤلاء كلهم! وإذا تعين على وليّ الأمر منعُ مَن لم يُحسِن التطبيب من مداواة المرضى، فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسُّنَّة ولم يتفقه في الدين؟" وإنك لتعجَب كل العجب ممَّن يبحث عن الطبيب الحاذق ليعالجه، والمهندس الماهر ليرسم له ويخطط، والمحامي حاضر الذهن ليدافع عنه، أما إذا تعلق الأمر بالدين فالتساهل يكون سائدًا، وتتبُّع الرُّخَص يكون هو الغالبَ.

شروط المفتي:

ذكَر العلماء شروطًا لا بد أن تتوفر فيمن يتصدى للإفتاء، منها:

أولًا: المعرفة الجيدة باللغة العربية وقواعدها؛ فإن شريعةَ المصطفى صلى الله عليه وسلم مُتَلَقَّاها ومُسْتَقَاهَا الكتاب والسنَّة، وآثار الصحابة ووقائعهم، وأقضيتهم في الأحكام، وكلها بأفصحِ اللغات، وأشرف العبارات؛ فلا بد مِن الارتواء باللغة العربية؛ فهي الذريعةُ لمداركِ الشريعة.

ثانيًا: ما يتعلَّقُ بأحكام الشريعة مِن آيات الكتاب، والإحاطة بناسخها ومنسوخها، عامِّها وخاصِّها، وتفسير مجملاتها؛ فإن مرجعَ الشرع وقُطْبَه الكتابُ العزيز.

ثالثًا: معرفة السنن؛ فهي القاعدةُ الكبرى؛ فإن معظمَ أصول التكاليف متلقًّى مِن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله، وفنون أحواله، ومعظم آي الكتاب لا يستقلُّ دون بيان الرسولِ صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن الاعتمادُ على السُّنن إلا بالتبحُّر في معرفة الرجال، والعلم بالصحيح من الأخبار والسقيم منها، وأسباب الجرح والتعديل، وما عليه التعويلُ في صفات الإثبات مِن الرواة، والثقات، والمسنَد والمرسَل.

رابعًا: معرفة مذاهب المتقدِّمين من الفقهاء؛ حتى لا تتعارض فتواه مع ما تقدم من إجماعٍ مِن قِبَل هؤلاء الفقهاء.

خامسًا: الإحاطة بطرق القياس، ومراتب الأدلة.

سادسًا: الورَع والتقوى؛ لأن الفاسقَ لا يوثَق بأقواله، ولا يعتمد في شيء مِن أحواله.

ولصعوبة تلك الشروط وشدَّتها، ينبغي على كل مَن يستسيغ أمر الفتوى أن يفكِّرَ ألف مرة قبل أن يُقدِمَ على هذا الصنيع؛ فإنه ليس أمرًا عاديًّا كما يتخيلُ البعض، ولا تنفع فيه المعرفةُ السطحية ببعض أمور الدين؛ إذ لا بدَّ فيه مِن التمييز بين القشر واللُّباب.

الخلاصة

الفتوى من الأمور الخطيرة التي لها منزلة عظيمة في الدين، والمفتي خليفة النبي صلى الله عليه وسلم في أداء وظيفة البيان، نسأل الله العون والصفح عن الزلل، والمفتي مُوَقِّع عن الله تعالى، قال ابن المنكدر: العالم موقع بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل بينهم.

والذي يجب على الناظر في الفتاوى أن يختاره هو ما شهد له الكتاب والسنة والإجماع، وكان جاريًا على قياس أهل العلم، وإن كان ثمة تعارض فإنه لا يأخذ إلا بالراجح في المسألة وهو الأقوى دليلًا والأسلم تعليلًا.

وليس المفتي بالخيار يأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء، وقد قال الإمام النووي رحمه الله: "ليس للمفتي والعامل في مسألة القولين أن يعمل بما شاء منهما بغير نظر، بل عليه العمل بأرجحهما" اهـ.

وبذلك تعلم أن أخذ العلماء بأيسر الفتاوى في الأمور التي تخص الفرد كحلق اللحية، وعمليات التجميل، وتطويل الثوب، والنمص ...، وأخذهم بالشدة في نحو كشف وجه المرأة، وفي الربا، والغناء وغير ذلك ...، دون النظر إلى ما هو راجح أو مرجوح من ذلك، هو –في الحقيقة– زلل كبير وشطط، لا يحق لمن ينتمي إلى الإسلام أن يراه صوابًا.

هذا، وليعلم أن لاختلاف العلماء أسبابًا لا يمكن تجاهلها أو رفعها ولا يتصور ذلك إلا من ليس له معرفة بتلك الأسباب وهي ليس فيها طعن في الشرع ولا انتقاص منه، كما أن موضوع الجرح والتعديل ليس بما تصورته من البساطة والسهولة، فهو موضوع يُعْنَى بالرجال الناقلين لحديث النبي صلى الله عليه وسلم والآثار والأخبار، والنظر في شرائط قبولهم، وأسباب ردهم ...

ولا يخفى ما لهذه الأمور من الصعوبة والخطورة، وهو علم قد تخصص فيه رجال كثيرون من علماء الأمة، فَنَقَّحُوهُ وَمَحَّصُوهُ وَبَيَّنُوا الزائف منه عن الصحيح.

وليس أمرًا عشوائيًّا يأخذ منه الفرد كيفما شاء، ويجب على المسلم أن يعلم أن شرع الله تعالى ليس ألعوبة يلعب بها كل من هب ودب ويتكلم فيها من شاء بما شاء، وإنما يجب أن يقتصر الكلام في الشرع على أهل العلم المختصين ومن تكلم فيه من غيرهم فيخشى عليه أن يكون ممن يقولون على الله بغير علم وذلك ذنب شنيع وإثم عظيم.

ومن أصول الخطاب الإسلامي إعلاء قيمة التقارب الإنساني من خلال مبادئ تقوم على الإحسان في القول والمجادلة بالحسنى لإعطاء فرصة لحوار بَنَّاء بين قوى المجتمع على نحو يُمَكِّن للسلم العام والعدالة الاجتماعية كأساس لبناء الدولة.

إعلان مبدأ اللين في القول والرد بالتي هي أحسن كإطار للعيش المشترك دلت عليه نصوص القرآن والسنة، قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤].

تهدف الآية الكريمة إلى إعلاء قيمة التقارب الإنساني عن طريق الإحسان إلى من أساء، فربما قاده الإحسان إليه إلى تحول قلبه من الضغينة إلى الصفاء، ومن الجفاء إلى الحنوِ، حتى يصير كأنه قريب لمن أحسن إليه.

وفي الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))، بل إن القرآن الكريم جعل اللين في القول والفعل، أحد مقومات رسالة الإسلام وسمة من السمات الشخصية للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ} [آل عمران: ١٥٩].

فقد كشفت الآية أن من صفات القادة وأصحاب الرسالات أن يدركوا أن الرحمة في الخطاب تؤلف وأن الغلظة في القول تفرق، وبطبيعة الحال فإن بناء العيش المشترك إنما يقوم على التآلف والتعارف لا على التقاطُع والتناكُر، وهو ما يحتاج إلى فن تطييب النفوس عن طريق اللين في القول، والتشاور في القواسم المشتركة، نبذًا للتفرق، واعتصامًا بوحدة الدولة، وتفعيلًا للأخوة الإنسانية، إعمالًا لقوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ} [الحجرات: ١٣].

وعلى نفس النهج، أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحماية أيضًا، وجعلها ميثاقًا واضحًا في آخر عهده بالدنيا في يوم الحج الأكبر، حيث قال في الصحيح: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ – قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ، فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)).

فقول الرسول: ((أيها الناس)) يؤكد أن الخطاب للناس جميعًا وأن الحماية للنفس، والمال، والعِرض في منهج الإسلام، مقررة لكل الناس، وردًّا لوحدة الأصل والنشأة، قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ} [النساء: ١].

فآية بهذا التأصيل لوحدة النشأة، تحمل خطابًا شرعيًّا لبني آدم جميعًا على اختلاف عقائدهم، وأصنافهم، وصفاتهم، وألوانهم، ولغاتهم، أن يتقوا الله الخالق، فيصلوا الرحم الإنسانية ولا يقطعوها.

ذلك أن جميع الناس لهم شرف النسب إلى آدم وحواء، فالأخوة الإنسانية حاضرة في هذه الآية الكريمة بقوة.

قال ابن عباس في معنى الآية: "اتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به"، واتقوا الأرحام الإنسانية أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها.

وفي الختام: لا يسعني إلا أن أتوجه إلى الله تبارك وتعالى أن تكون هذه الوريقات علمًا نافعًا في موضوع المشترك الإنساني والفتوى، وأسوق قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الطبراني في الكبير: ((من طلب علمًا فأدركه كتب الله له كِفْلَيْنِ من الأجر، ومن طلب علمًا فلم يدركه كتب الله له كِفْلًا))، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

المراجع

- انظر: المشترك الإنساني في كتابات د. عبد السلام ياسين (بتصرف)، منشور على موقع مدرسة الإمام المجدد عبد السلام ياسين.
- كتاب المشترك الإنساني ... نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، د. راغب السرجاني، الطبعة الأولى مؤسسة اقرأ للنشر، ٢٠١٠م.
- الفتوى وآدابها، وخطورة التجرؤ عليها، كمال عبد المنعم خليل، شبكة الألوكة.